

الرؤية الإسلامية عند علي أحمد باكثير "سلامة القس" نموذجاً

أ.د. صلاح الدين تارك

الأستاذ بقسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

محمد تنوير

باحث الدكتوراه بقسم اللغة العربية وآدابها،
جامعة كشمير، سرينغر

كان علي أحمد باكثير (١٩١٠-١٩٦٩م) أديباً موسوعياً ملتزماً في أدبه بطرح قضايا الأمة العربية والإسلامية بالصدق والإخلاص والشجاعة. انطلق في جل أعماله الأدبية ولا سيما الروائية من تصور إسلامي. فكان أول أديب عربي يرمز في رواياته للحركة الإسلامية رمزا إيجابياً. فهو لا يقف كغيره من الروائيين عند حدث تاريخي، بل إنما يغوص فيه بالتحليل والتفسير أخذاً الموعظة والنصائح للواقع المعاصر. كتب خمس روايات مقتبسا أحداثها من التاريخ الإسلامي. ومن هذه الروايات رواية "سلامة القس" التي تشتمل على حكاية عاطفية تاريخية، حيث تدور أحداثها بين الناسك العابد عبد الرحمان بن عمار القس الذي كان رمزا للعفة والطهارة والزهد والتقوى، وبين الجارية المغنية سلامة التي كانت من أشهر النساء المغنيات في عهد عبد الملك بن مروان. يحاول المؤلف من خلال هذه الحكاية أن يصور الصراع بين الهوى والتقوى، ممثلاً شخصية "سلامة" وانحرافها الديني وبعدها الخلق، وشخصية عبد الرحمان بن عمار القس، وتشدده الديني، والتزامه بالمحافظة على الصلوات وحرصه الشديد على إجراء أوامر ربه واجتناب نواهيه. تنقسم هذه الرواية إلى ثلاثة عشر فصلاً مستقلاً. وكل فصل يقدم شخصية معينة. وتتمثل جميع الشخصيات بصورة مختلفة. حيث تمثل البعض منها تيار الفكر الإسلامي والخلق الديني، والبعض الآخر تمثل البعد الديني والانحراف الخلق، بينما تمثل البعض الآخر الوسطية في الإسلام. ومن أهم هذه الشخصيات:

عبد الرحمان بن عمار القس:

إنه كان عنواناً للشباب العفيف الناشئ في عبادة الله الفقيه في دين الله المتمسك بأوامر الله والمتجنب عن نواهي الله. ربه أمته الصالحة منذ صغره على التقوى والعبادة. وقد حفظ القرآن ولم يبلغ عشرة من عمره. وكانت أمه تريد أن يكون

ابنها عالما وفقهيا كمثل سعيد بن المسيب أو العطاء بن الرباح. وكانت تدعو الله في الهزيع الأخير من الليل أن يحقق الله لها هذا الأمل، فاستجاب الله دعوتها، حيث أصبح مضرب المثل لزهده وورعه وتقواه في أنحاء مكة وما يليها، حتى لقبه أهل مكة "القس" لزهده وعبادته وملازمته في المسجد، على هذا النحو كانت حياته تمر على وتيرة واحدة، حيث كان يذهب من البيت إلى المسجد ومن المسجد إلى البيت، وأحيانا كان يذهب إلى بيت صديقه أبي الوفاء ويتحدث معه. غير أن اشتد الصراع في حياته العادية عندما كان في الطريق ذات يوم إلى بيت صديق أبي الوفاء. وفي أثناء الطريق سمع فجأة صوت مغنية مطربة فارتجف خائفا من الله، لأنه كان سمع نفس الصوت في المنام، حيث رأى أن امرأة عارية تجره نحو الجهنم وهو يجره نحو الجنة. فإذا كان القس واقفا في الطريق ومتفكرا عن الصوت الذي كان سمع في المنام. ظن ابن سهيل وهو (أحد الشخصية الروائية) مستغرقا في استماع سلامة المغنية. فدعاه إلى دخول المنزل ليستمتع سلامة المغنية بقرب، ويطمأن نفسه بهذا الصوت الجميل. فلما سمع عبد الرحمان بن عمار القس صوت سلامة المطرب الساحر متى قرب منها، أعجب بهذا الصوت المطرب الساحر فمالت نفسه إليها وتعشق بها، حتى نشأت بينهما علاقات ودية وعفيفة. وشاعت أمر حبهما بين أهل مكة حتى اشتهر باسم سلامة القس لحبه وولعه الشديد بها. فأراد يوما أن يشتريها من مالكها ابن سهيل، ولكن من سوء الحظ قد تم بيعها من قبل، وجن جنون حياها عليه، وعزم استردادها، فجمع مالا وذهب به إلى المدينة لشرائها، لكنه علم أن ابن رمامة قد باعها ليزيد بن عبد الملك في نفس اليوم. فلما يئس من هذا السعي أخذ يجول في شارع المدينة متذكرا إياها وسعيا لنيلها. حتى تغيرت حياته من الزهد والعبادة والتقوى إلى حياة حب وعشق، فهو يشاق دائما إلى سماع صوت سلامة وغنائها العذبة إلى أن أصبح أقل صرامة وشدة وأكثر تفهما وتساهلا مع كل ما يحيط بسلامة من أجواء الغناء والطرب، وليس هذا فحسب بل لقد أخذ يقرض الشعر في حياها وصبايتها. فلما واجهه الطعن والانتقاد من قبل الناس قال مدافعا عن نفسه ومبررا سلامة منها:

يا قوم إني بشر مثلكم
وفاطري ربكم الفاطر
لي كبد تهفو كأكبادكم
ولي فؤاد مثلكم شاعر^١.

قدم لنا المؤلف من خلال هذه الشخصية خير مثال للحب العفيف الطاهر الذي لا يتجاوز من القلب إلى الجسد، ولا يؤدي إلى الانتحار عند الفشل والإخفاق فيه. فلما وقع في حب سلامة لم يتجاوز حدود الإسلام في حبها ونيلها، بل أراد أن ينال حبها ويتزوجها بطريقة جائزة حسنة. ولكنه عندما لم ينجح في نيلها والزواج بها، وكل هذا الأمر إلى الله تعالى قائلا: "أجل انقطع كل أمل في صيرورتك في هذه الحياة الدنيا، أما في الحياة الأخرى فان الأمل باق يا سلامة، وانه لأمل كبير"^٢.

سلامة:

إنها كانت جارية من مولدات المدينة، نشأت وترعرعت في عهد الأمويين، ولما بلغت أشدها بيعت لرجل ثري من أثرياء مكة الموسوم بابن سهيل. وكانت تتلقي في بيته بكثير من الشعراء والمغنيين والمتغزلين، حتى مالت إلى الغناء والتغزل وقرض الشعر وأتقنت بها. كانت سلامة تخرج بشوبهاتها إلى المرعى وتقضي معظم أوقاتها في الغناء والتغزل. وذات يوم لقيت جارية "جميلة" (المغنية الشهيرة) فتأثرت بها ومالت إلى الغناء أكثر مما تميل إليها من قبل. ومن خلال ذلك دعاها أبو الوفاء (أحد الشخصية الروائية) إلى تلاوة القرآن ومحافظة الصلوات والبعد عن سماع الغناء والتغزل قائلا إن الغناء من غواية الشيطان، فعليك أن تجتنب منها وتبعد عن سماعها، ولكنها لم تسمع إلى نصائحه بل رفضت ومالت إلى الغناء والتغزل، فعندما لم ينجح أبو الوفاء في ميلها إلى الدين وتلاوة القرآن ويئس منها باعها لآل رمامة. فأخذت

^١ علي احمد باكثير: سلامة القس، ص ٩٠

^٢ نفس المصدر: سلامة القس، ص ١٦٦

تسكن في بيت رمامة مائلة إلى الغناء أكثر مما قبل، حتى ازدادت شغفها بالغناء ولا سيما بسماع غناء جميلة (المغنية الشهيرة) إلى حد أنها كانت تحلم تلك الأغاني التي كانت سمعتها من جميلة في نومها، على نحو ما نعرف من الاقتباس التالي:

" وكانت تلك الليالي القصار التي أحيتها جميلة المغنية في دار مولاهها
نعمة كبيرة على سلامة إذ استطاعت وهي مستلقية على فراشها أن
تستمع بألحانها التي كانت تترجع في سكون الليل كأنها نغمات الحر في
قصور الجنان لم تتم سلامة ليلتها إلا قليلا بعد منتصف الليل، وكانت
تحلم تلك الأغاني في نومها، ولم تكذ مولاتها توقظها كعادتها من مطلع
الفجر حتى ترنمت ببعضها خشية أن تنسى ما حفظت منها"^١.

تعد هذه الشخصية في الرواية كشخصية نامية، حيث أنها تتحول من حالة إلى حالة أخرى، تتحول من جارية تعمل وتخدم في بيت أبي الوفاء إلى راعية البهائم، ومن متعلمة الغناء لدى جارية "جميلة إلى معلمة الغناء والمتقنة لها، ومن تنافره لعبد الرحمان بن عمار القس إلى محبوبتها ومن هاربة عن مبادئ الإسلام إلى المحافظة عليه. كانت في البداية باعدة عن الدين ومنحرفة عن كل ما فرض الله عليها من الصوم والصلاة. ولكنها عندما لاقت عبد الرحمان بن عمار القس تغيرت حياتها إلى حد بعيد، فأخذت تحب الدين وتحافظ على الصلوات، وتجتنب عن الكبائر. ولعل المؤلف حاول من تقديم هاتين الصورتين المتناقضتين لهذه الشخصية أن يقدم لنا انتصار التقوى على الهوى والشيطان. بحيث أن سلامة كانت تحرض عبد الرحمان بن عمار القس إلى الغناء والتغزل وإلى كل ما نهى الله عنه، وهو على عكس ذلك يحرضها على محافظة الصلوات وإلى امتثال كل ما أمر الله به. فجرى الصراع بينهما حتى انتصر الحق على الهوى والشيطان.

بالإضافة إلى هاتين الشخصيتين الرئيسيتين نطلع في هذه الرواية على

^١ الأعمال الروائية لعلي أحمد باكثير، المجلد الأول، ص ٤٠

شخصيات عديدة، تظهر عنها ثانوية، فان الرواية لم تتعمق في تصوير ملامحها وتبيين أفكارها، بل أنها تبدو ما تحتاج إليها في سياق أحداث الرواية. ومن أهم هذه الشخصيات شخصية أبي الوفاء الذي يمثل التشدد الديني. حيث انه كان صديقا لعبد الرحمان بن عمار القس. وهو دائما يحذر عبد الرحمان بن عمار القس عن لقاءات سلامة والتفكير عنها والانشغال بها، وينصحه قائلا: " إنك تعلم مالك من مكانة في الناس لصلاحك وتقواك وفقهك في الدين على حداثة سنك، حتى لقبك أهل مكة القس، واعتبروك بحق خليفة عطاء بن أبي رباح".^١ وحاول المؤلف أن يقدم خلال هذه الشخصية الثبات على الدين والقيام به والعمل على ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم. وقد حاول المؤلف أن يشير من خلال تشدد هذه الشخصية على الدين وتمسكه في أحلك الظروف إلى موقف العلماء الربانيين الذين يعطون اللينة والمرونة في التعامل مع الدين.

بالإضافة إلى هذه الشخصية نجد في الرواية شخصية أخرى، وهي شخصية ابن سهيل الذي هو خير تصوير لذوي النعمة والمال الكثير الذين يصدقون الأموال على اللهو واللعب. فعلى حد تعبير المؤلف: "ورث ابن سهيل مالا كثيرا عن أبيه، ونشأ نشأة النعمة واليسر. وكان محبا للغناء واللهو ومولعا بمنادمة الشعراء والمغنيين يستقدمهم من الآفاق ويصدق عليهم الأموال".^٢ وقد يمثل هذه الشخصية الوسطية في الإسلام، حيث انه كان يحافظ على الصلوات ويصوم رمضان ويطيع أوامر الله ويجتنب عن نواهي الله. ومع ذلك كان يعتقد أن سماع الغناء والاستمتاع به والإصغاء إليه أمر مباح. ويتضح لنا هذا الأمر بالوضوح من هذا المشهد الروائي:

"تهياً عبد الرحمان للمشي فقال له ابن سهيل: "إلى أين يا ابن أبي عمار؟"

قال عبد الرحمان: "إلى المسجد".

^١ نفس المصدر، ص ٣٦

^٢ نفس المصدر، ص ٤٢

قال ابن سهيل: " ليس الآن يا بن عمار... لم يحن وقت الظهر بعد... هلم معي إلى المنزل فليس من الحق أن تمر بباب منزلي ولا تعرج عليه... اشهد مجلسنا اليوم فسيجتمع عندي طائفة من فحول الشعراء يتساجلون، وستسمع إن شئت من جاريتي سلامة غناء لم تسمعه في حياتك"^١.

إن الصراع الداخلي أفضل من الصراع الخارجي حيث يظهر لنا حقائق الأمور وخبايا النفس البشرية بصورة حسنة، فإذا لجأ علي أحمد باكثير إلى الصراع الداخلي ازدادت أهمية هذه الرواية إلى حد كبير. فالصراع في هذه الرواية صراع بين الهوى والتقوى، بين الجارية سلامة وانحرافها الديني وبعدها الخلقى، وبين عبد الرحمان بن عمار القس والتزامه بالأمر الديني وحرصه الشديد على الورع والتقوى. فاستطاع أن يعبر من خلال هذا الصراع المفضل عن القيم الأخلاقية والتعاليم الإسلامية مصورا جوانب اجتماعية وعاطفية كي ينصرف أنظار الشباب والجيل الناشئين عن قصص الحب والغرام الخادع الفاضح التي كانت تنشر في المجتمع العربي عن طريق ترجمة القصص الأوربية الحديثة، والتي كانت تهتم بوصف المغامرات الجنسية وكشف عورات النساء الفاحشة. ويقدم أمام الشباب والجيل الناشئين صورة صادقة للحب العذري العفيف دون التعمق في وصف المغامرات الجنسية وكشف عورات النساء الفاحشة.

تعتمد هذه الرواية على الرومانسية أكثر من اعتمادها على الأحداث التاريخية. بحيث أنها تجمع في طياتها جميع خصائص اللون الرومانسي من حزن مؤلم، وفراق طويل ونزعة مأساوية في نهاية الرواية بموت بطل. وهذه هي أهم سمات الرواية الرومانسية. ولذلك يعتقد بعض الأدباء أن هذه رواية تاريخية رومانسية. غير أنها تختلف تماما عن الرومانسية المفرطة في تصوير العلاقات الغرامية وتقديم حالات الحب والهيام الفاحشة، حيث أن الكاتب اعتمد فيها على الحب العذري العفيف

^١ علي أحمد باكثير: سلامة القس، ص ٥٥

الطاهر، إذ انه صور الحب بين عبد الرحمان القس وبين الجارية سلامة دون التعمق في وصف المغامرات الجنسية وكشف عورات النساء الفاحشة، بل أنه يمر كمثل هذه المواقف بالإشارة إليها ووصفها بما يقتضيه الموضوع والفن. فإذا تحتوي على قصة عاطفية رومانسية لكن المؤلف لم يتجاوز الحدود الأخلاقية والإسلامية، بل أنه قيد نفسه في هذه المواقف على رؤية إسلامية نقية معتقدا أن الحب فطري في الإنسان وأنه مقسم بين الغني والفقير وبين الأبيض والأسود وبين الناسك والفاجر. وفضلا لذلك أن المؤلف يستخدم هذه الرواية كأداة التصالح بين الدين والفن وبين الحب والدين، حيث صور العلاقة بين الدين والفن خلال تقديم قصة حب بين عبد الرحمن بن عمار القس وبين الجارية المغنية سلامة. فكانت علاقتهما في بداية الأمر علاقة صراع وتنافر، وذلك لأن القس كان عابدا وزاهدا مائلا إلى الله وخائفا من الله، بينما كانت سلامة جارية بعيدة عن الدين ومائلة إلى الغناء والتغزل. وللتوضيح أنظر إلى الحوار التالي الذي يدور بين القس وأبي الوفاء حيث اعترف عبد الرحمن بن عمار القس أمام صديقه أبي الوفاء قائلا: "إنني وقعت في حب سلامة ولا أصبر عن رؤيتها والحديث معها، فاعتبر أبو الوفاء هذا الحب ههنا: " فقال عبد الرحمان بهدوء: إنه ليس ههنا يا أبا الوفاء. فنظر عليه الشيخ كأنه ينكر عليه قوله وقال: " معاذ الله أن يقع منك هذا يا ابن أبي عمار.

فسكت أبو الوفاء وهو يغالب عبرة تجول في عينيه ثم قال: إن تك قد وقعت في شيء من ذلك فأنب إلى الله فان المؤمن إذا تاب الله عليه.

فقال عبد الرحمان بصوت متقطع: " لقد جاهدت لأصرف نفسي عن رؤية هذه الجارية وسماعها، فلم أجد إلى ذلك سبيلا.

قال أبو الوفاء: في وسعك لو شئت عن تنقطع عن دار ابن سهيل وتفرغ إلى صلاتك^١.

^١ د. حسن سالم هندي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسة في البنية السردية، ص ١١٥

إن بعض الدارسين يرون أن هذا العمل الأدبي يصلح أن يكون نموذجا رائعا في أدب الدعوة الإسلامية بالنظر إلى مضمونه وعنايته بالجوانب الأخلاقية الحميدة ومحاربة العادات الضارة. فلو انتزعت شخوص هذه الرواية أو استبدلت بها شخوصا أخرى غير شخوص التاريخ، لكانت الرواية هذه رواية واقعية اجتماعية لدلالاتها الأخلاقية التعليمية الدينية وتأكيدا على مجموعة القيم الإسلامية وإبراز علاقتها بين الرجل والمرأة وارتباطها بقضايا الإنسان من حب وألم وسعادة وشقاء. فقد عالجت هذه الرواية قضايا الحب والشوق والهيام والغرام متجنبنة عن الكلمات الساقطة والعبارات الجارحة في وصف المرأة وحبها، بل أنها ارتكزت على القيم الأخلاقية في تصوير الحب والعشق.

لقد يعتقد بعض الدارسين الأدب ولا سيما الدكتور عبد الحكيم الزبيدي أن المؤلف حاول في هذه الرواية أن يمثل سيرته الذاتية على لسان شخصية عبد الرحمان بن عمار القس. بحيث يوجد التشابه وبطل الرواية في كثير من الملامح، مثلا أن كلا منهما نشأ وترعرعا في بيئة إسلامية محافظة على التمسك الديني، وكذلك هناك التشابه بين حب بطل الرواية لجارية سلامة وبين حب الكاتب لفتاة جميلة من عائلته. وقد واجه الكاتب كثيرا من المشاكل والأزمات للزواج بهذه الفتاة، مثلما واجهها بطل الرواية للزواج بسلامة، وكما لم يفلح بطل الرواية بالزواج لمعشوقته سلامة، وخابت كل محاولته للزواج بها، كذلك كان الكاتب يهوي لمحبوبته هند ويذكرها ويجذب حبه ويشتاق لقاءها طول الحياة. إضافة إلى ذلك نرى التشابه بين حبهما وولعهما الشديد، بحيث كان الكاتب أيضا يحب هند حبا عذريا وعفيفا، حيث هو يريد أن يكلل هذا الحب بالزواج على سنة الله ورسوله صلي الله عليه وسلم، كما يريد بطل الرواية عبد الرحمان بن عمار القس، وكما نشاهد بطل الرواية عبد الرحمان القس مقرضا الشعر في ذكريات محبوبته سلامة، كذلك نجد الكاتب يتذكر هند في قصائده الشعرية فمثلا يقول:

" حبيبة قلبي ما أرى العيش سائغا

بدون ارتحالي نحوكم ووصولي
متى نلتقي يا هند في بلدة الهنديا
ونبرد في ظل هناك ظليل^١

فهذا الاعتبار يمكن لنا القول إن المؤلف يتحدث في هذه الرواية عن تجربته الشخصية مختارا الحدث من التاريخ ومضيفا عليها من خياله ما زاد جمالا وتشويقا. انه لم يعتمد على كل ما نسجت حول هذه القصة في كتب المؤرخين، ولا كل ما جرت على ألسنة الناس من الأساطير والأحاديث، بل انه اختار منها ما يرى يناسب للرواية ويصلح لروعة مشاهدتها ونمو أحداثها وتعبير أبطالها. فانه مزج هذه القصة بين الأخبار التاريخية والأساطير المتداولة وبين الخيالات البديعة والمهارات الفنية، مختارا من هذه وتلك، لتأليف تجربة شخصية في قالب رواية تاريخية رومانسية. كي يعبر خلالها قضية الحب العذري العفيف بين شباب المسلمين^٢.

وإن من أهم ما يلفت النظر في هذه الرواية هو القيم الأخلاقية التعليمية التي عبرت الرواية بتجربة شخصية، وصورت جوانب اجتماعية وطبقية، إلى جانب مضمونها التاريخي العاطفي الرائع الذي جعل المؤلف محورا لهذه الرواية. وأن الكاتب لم يهتم فيها التاريخ مثلما اهتم في الروايات الأخرى، بل إنما انتخب منها قصة الحب والعاطفة، وقدمها تقديمًا فنيًا رائعًا. حيث أن الحب لا يتجاوز في هذه الرواية من القلب إلى الجسد ولا يؤدي إلى الانتحار عند الفشل، بل جعل الكاتب هذا الحب أرق الناس قلبا وأغزرهم دمعا وأعلاهم خشوعا في العبادة وإقبالا على الطاعة، بسماته الفكرية وثقافته الدينية معتمدا على استخدام الوسائل الفنية من الشعر والغناء والحلم ومختارا من الشخصيات ذات الأفكار المتنوعة والأبعاد النفسية. وفي الأخير يمكن لنا القول إن الرواية تمتلك مقدرة فنية من حيث اللغة والأسلوب. وأنضح فنا

^١ د. أحمد عبد الله السامحي: حياة علي أحمد باكثير، ص ٢٦

^٢ محمد حسن طيبيل: تحولات الرواية التاريخية في الأدب العربي، ص ٩١

من حيث تقديم الشخصيات والحوادث، وأجمل تعبيراً عن الرومانسية والواقعية الإسلامية. حيث استطاعت خلال معالجة قصة الحب والهيام تقديم الواقعية الإسلامية مستوحاة الأحداث من التاريخ الإسلامي العربي برؤية التاريخ والأبعاد الواقعية كي تخلق لدى القارئ استجابات، وتعطيه قوة الخيال والانفعال التي يجعل القارئ يعيش في التصور الديني.

المصادر والمراجع:

- ١- علي أحمد باكثير: سلامة القس، مكتبة مصر، ١٩٤٥ م
- ٢- ضحى علي فهد: علي أحمد باكثير وأدبه النثري، وزارة التعليم العالي بغداد، ٢٠١١ م
- ٣- محمد حسين طبيل: تحولات الرواية التاريخية في الأدب العربي، ط مكتبة نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا، غزة، ٢٠١٦ م
- ٤- د. حسن سالم هندي إسماعيل: الرواية التاريخية في الأدب العربي الحديث دراسة في البنية السردية، ط دار الحامد للنشر والتوزيع/الأردن، ٢٠١٤ م
- ٥- د. أبو بكر الباكري: روايات علي أحمد باكثير التاريخية مصادرها... نسيجها الفني... إسقاطاتها. موقع الأديب علي أحمد باكثير WWW.bakatheer.com

* * *